

الفصل التاسع

انتفاضة الأقصى

وجذور العنف الصهيوني

نشاهد يومياً فى القضائيات مدى عنف الاستجابة الإسرائيلية للانتفاضة الفلسطينية، وهو عنف لم نرى مثله من قبل فى عمليات القمع الإسرائيلية. والحق يقال إننى توقعت هذه المواجهات العنيفة منذ أن بدأ ما يسمى بعملية السلام. وشعرت بأقترابها حينما صرح أحد المفاوضين الفلسطينيين أنه لم يتم التوصل إلى سلام دائم وإنما إلى مفاوضات سلام دائمة، وهو تعليق ساخر تشوبه المرارة يصف الطريق المسدود الذى دخلته عملية السلام، والذى جعل الفلسطينيين يدركون مدى عبثية عملية أوسلو بأسرها.

ومع هذا حين اندلعت انتفاضة الأقصى وحين قوبلت بكل هذا العنف الإسرائيلى، اعترتني الدهشة، وتساءلت كيف يمكن للإسرائيليين بعد هذا أن يستمروا فى الزعم أنهم يريدون التعايش جنباً إلى جنب مع الفلسطينيين، خاصة بعد أن تم إسقاط أهم الثوابت الفلسطينية (عدم الاعتراف بإسرائيل - الميثاق الوطنى الفلسطينى) وتم وضع علامة استفهام

على بعضها (عودة اللاجئين)، وكل هذا من أجل سلام يتسم بالحد الأدنى من العدل.

الرؤية الصهيونية للواقع

لم يكن أمامى من سبيل لفهم كل هذا العنف إلا بالعودة للرؤية الصهيونية للواقع التى تحدد إدراك الإسرائيليين لأنفسهم ولن حولهم. وإدراك المرء للواقع (وليس الواقع فى حد ذاته) هو الذى يحدد سلوكه وكيفية استجابته لما يدور حوله. كان على العودة إلى المقولة البسيطة الساذجة التى تشكل أساساً للتصور الصهيونى للواقع وهى أن فلسطين «أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض» والنصف الثانى من المقولة، أن اليهود شعب جائل لا وطن له، ثبت كذبه، إذ إنه بعد قرن كامل من الاستيطان الصهيونى وبعض نصف قرن من إعلان الدولة، لاتزال الغالبية الساحقة ليهود العالم موجودة خارج الدولة الصهيونية، مما ينفى عن هذه الدولة صفة أنها وطن كل يهود العالم، وينفى عن اليهود صفة أنهم شعب يتطلع للعودة لوطنه، ومع هذا أمكن للدولة الصهيونية التعايش مع هذا الوضع وأن تستمر فى طريقها، كأن شيئاً لم يحدث.

أما بالنسبة للنصف الأول من المقولة «أرض بلا شعب» فالمسألة أكثر عمقاً ولا تتحمل أى تهاون، إذ إن الإجماع الصهيونى (الذى يشكل الإطار الإدراكى والأيدىولوجى لكل الصهاينة) يستند إليها، ففلسطين، من منظور صهيونى، هى إرتس إسرائيل، وطن اليهود القومى، ومن ثم

فإن اليهود، كل اليهود، لهم حقوق مطلقة فيه، والحقوق المطلقة لا تقبل الآخر، مما يعنى إنكار حقوق العرب فى أسوأ تقدير أو تهميشها فى أحسنه ومن هنا قانون العودة الصادر عام ١٩٥٠، الذى وصفه بن جوربون - عن صدق - بأنه عمود الصهيونية الفقرى، وهو قانون يمنح أى يهودى ترك «وطنه المزعوم» من عدة آلاف من السنين «الحق» فى العودة ليصبح مواطناً فور «عودته» وتنكر، فى الوقت ذاته، هذا الحق على ملايين الفلسطينيين القابعين فى مخيمات اللاجئين.

هذا الإجماع هو ما يتفق عليه كل الصهاينة، متطرفهم ومعتدلهم، يمينهم ويسارهم، رأساليهم واشتراكيهم، وهو شكل من أشكال العنف الفكرى، فهو رؤية اختزالية للواقع المركب يستبعد من وجدان الصهاينة فلسطين وشعبها وتاريخها بل وجغرافيتها. والصهيونية فى هذا لا تختلف عن التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية الأخرى، حين يتم نقل كتلة بشرية من أوروبا ويتم توطينها فى أرض جديدة، وعادة ما يشارك أعضاء هذه الكتلة فى تبرير موقفهم باللجوء إلى ديباجات مختلفة ولكنها مع هذا لها سمات ثابتة:

١ - فكل المستوطنين عادةً ما يتجهون إلى إلغاء الزمان (التاريخ) أو تجميده والانفصال عن المكان. ونقطة البداية عند المستوطنين البيض لا بد أن تُغيب السكان الأصليين تماماً. ونقطة البداية عند المستوطنين البيض المهاجرين من العالم الغربى هى عادة رفض تاريخ بلادهم الأصلية، باعتباره تاريخ اضطهاد وكفر. ويحاول المهاجرون أن يضعوا حلاً نهائياً

لشاكلهم وأن يبدأوا من نقطة الصفر الفردوسية فى الأرض الجديدة، ويتضح هذا الجانب فى اسطورة الاستيطان الصهيونية التى تبدأ برفض تاريخ اليهود فى المنفى (وضمن ذلك العالم الغربى) والصهيونية هى الحل النهائى الذى يطرحه الصهاينة والاستيطان فى صهيون هو نقطة البداية والصفر.

٢ - ينكر المستوطنون البيض تاريخ السكان الأصليين فى الأرض التى سيهاجرون إليها ويستوطنون فيها. فهى عادةً أرض عذراء بلا تاريخ، غير مأهولة بالبشر (أرض بلا شعب)، على عكس الأرض التى يأتى منها المستوطنون، فهى مكتظة بالسكان.

ومرة أخرى نجد أن أسطورة الاستيطان الصهيونية تعبر عن هذا بشكل متبلور، إذ يزعم الصهاينة أن فلسطين هى إسرائيل أو صهيون، وأن تاريخها قد توقّف تمامًا برحيل اليهود عنها، بل إن تاريخ اليهود أنفسهم قد توقّف هو الآخر برحيلهم عنها. ولن يستأنف هذا التاريخ إلا بعودتهم إليها، ولكنه تاريخ جديد خال من الاضطهاد والصراع، فهو أقرب إلى التاريخ المقدس.

٣ - لا تؤكد أسطورة الاستيطان الغربية نهاية التاريخ وحسب وإنما نهاية الجغرافيا كذلك، فالأرض التى يستوطن فيها الإنسان الأبيض هى أرض وحسب، ليس لها حدود واضحة ولذا فهى تتسع حسب قوة الإنسان الأبيض الذاتية، كلما زاد عدد المستوطنين وازدادوا قوة اتسعت الحدود. ومن هنا فكرة الرائد والجبهة المتسعة دائما. والرائد هو الذى

يرتاد أرضاً جديدة دائماً، لا يعرف حدوداً ولا قيوداً ولا حدوداً. وارتباط نهاية التاريخ بنهاية الجغرافيا أمر متوقع، ففكرة الحدود فكرة إنسانية حضارية غير طبيعية، أما عالم الطبيعة والمادة فلا يعرف الإنسان، ومن ثم فهو لا يعرف الحدود.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية هي أسطورة التوسع بالدرجة الأولى، فإرتس إسرائيل ليس لها حدود واضحة. فالعهد القديم يحتوى أكثر من خريطة والمستوطنون الصهاينة أطلقوا على أنفسهم مصطلح «حالوتسيم» أى «رواد».

٤ - إذا حدث أن كانت الأرض التى يقال لها «عذراء» مأهولة بالسكان فإن أسطورة الاستيطان الغربية تحاول تهميشهم، فهم قليلو العدد متخلفون يفتقرون إلى الفنون والعلوم والمهارات المختلفة، يهملون الثروات الطبيعية الكامنة فى الأرض. وهم عادةً مجرد رحالة لا يستقرون فى أرض ما، وهم شعب لا تاريخ له، فأعضاؤه جزء لا يتجزأ من الطبيعة (كالثعالب والذئاب) ومن ثم لا حقوق لهم. لكل هذا فإن وجود مثل هؤلاء الناس هو وجود عرضى ومن الضرورى وضع حل جذرى ونهائى للمشكلة الديموجرافية، أى مشكلة وجود السكان الأصليين فى الأرض العذراء وضرورة اجتثاث شأفتهم تماماً.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية تنظر للوجود الفلسطينى فى فلسطين باعتباره أمراً عرضياً هامشياً، والاعتذاريات الصهيونية مليئة بالحديث عن فلسطين باعتبارها أرض مهجورة مهملّة، وكثيراً ما يتحدث الصهاينة

عن الفلسطينيين كما لو كانوا جزءاً من الطبيعة بلا تاريخ. وكل هذا ينتهى بطبيعة الحال بتأكيد حق اليهود المطلق فى فلسطين. وتحاول الحركة الصهيونية وضع حل نهائى للمشكلة الديموجرافية فقامت أحياناً بالإبادة (دير ياسين - كفر قاسم) ولكن الطرد كان الشكل الأساسى، وبعد اتفاقيات أوسلو أخذ الحل النهائى شكل عزل السكان الأصليين داخل مجموعة من القرى والمدن ومحاصرتهم بالقوات العسكرية الإسرائيلية والطرق الالتفافية.

٥ - تم تبرير الرؤى الاستيطانية الإحلالية عن طريق القصص الإنجيلية، وهنا يحدث تلاق كامل بين أسطورة الاستيطان الغربية العامة وأسطورة الاستيطان الصهيونية، فالمستوطنون البيض (وضعنهم الصهاينة) ينظرون إلى أنهمسهم باعتبارهم من الأباء (البطارقة) الذين تركوا بلادهم ليستقروا فى بلاد أكثر اتساعاً، أو فى أرض عذراء لم يستوطن فيها أحد من قبل، وهم مثل العبرانيين يخرجون من مصر (أوبابل) أرض المنفى البغيضة، وينسلخون من تاريخها ليعودوا إلى صهيون (الجديدة) بأن «يصعدوا» لها. فإن وجدوها مأهولة فأهلها إتن من الكنعانيين الذين لا حق لهم فى الأرض ومصيرهم هو الحل النهائى: الطرد أو الإبادة.

وغنى عن القول أننا حينما نتحدث عن «أسطورة» فنحن لانتحدث عن واقع تشكل ولا حتى عن برنامج عمل، وإنما عن قصة أو قصص يوجد فيها بشكل كامن نموذج معرفى، وهذه القصة مستبطنة تماماً، تعبر

عن نفسها بشكل جزئي وتتحقق بعض جوانبها في أماكن وأزمنة متفرقة، ولا تتحقق مجتمعة إلا في لحظة نماذجية نادرة.

استناداً إلى كل هذه التبريرات الأسطورية يدعى المستوطنون أن لهم حقاً في اغتصاب الأرض الجديدة من سكانها الأصليين ويحل لهم إبازتهم أو طردهم. والولايات المتحدة مثل واضح على الاستعمار الإحلال الذي يلجأ للإبادة، والدولة الصهيونية هي مثل واضح على النوع الثاني المبني على الطرد.

وما عمق من العنف الإدراكي لدى الصهاينة؛ هو تفسيرهم للعقيدة اليهودية. فقد حولوا العهد القديم إلى فلكلور الشعب اليهودي، وهو كتاب تفيض صفحاته بوصف حروب كثيرة خاضها العبرانيون ضد الكنعانيين وغيرهم من الشعوب التي أبادوا بعضها، وهو يفصل فصلاً حاداً بين الشعب اليهودي المقدس والأغيار (أى غير اليهود)، بكل ما يتبع ذلك من ازدواجية في المعايير تجعل الآخر مباحاً تماماً وتجعل استخدام العنف تجاهه أمراً مقبولاً. والصهاينة في هذا - بالمناسبة - لا يختلفون كثيراً عن المستعمرين البيض في أمريكا الشمالية وجنوب إفريقيا وغيرها من الجيوب الاستيطانية. فأعضاء الكتلة البشرية الوافدة دائماً يزعمون أنهم أكثر تفوقاً من السكان الأصليين (فهم شعب مختار أو جنس أبيض متفوق أو رسل حضارة) وبأسم هذا التفوق يقومون بإبادة كل من يقابلهم من كنعانيين أو هنود حمر أو فلسطينيين.

كما أن الصهاينة (على عكس ما يتصور الكثيرون) يكرهون الشخصية اليهودية وينعتونها بالسلبية والهامشية والخنوع والعجز؛ ولذا طالبوا بتحديث الشخصية اليهودية حتى يمكن أن تتخلص من خنوعها وتصبح شخصية قادرة على القتال، وكما قال بيجين: «أنا أحارب، إذن أنا موجود». ومن قبله أوصى أستاذه جابوتنسكى اليهود بأن يتعلموا الذبح من الأغيار «فالتوراة والسيف أنزلا علينا من السماء».

الرؤية الصهيونية للعرب

وقد طُوِّر الصهاينة صوراً إدراكية للعربي تنزع عنه إنسانيته وتُجرده تماماً حتى تُغيَّبه. وتتم هذه النظرية بتصاعد معدلات التجريد إلى أن نصل إلى النقطة التي يتحقق فيها النموذج الصهيوني الإدراكي وهي التغييب الكامل للعرب:

١ - العربي كعضو في الشعوب الشرقية الملونة (تخفيض العربي):

وفي إطار هذا التصور ، يُقدَّم الصهاينة وصفاً للشخصية العربية علي أنها شخصية متخلفة، ومثل هذا الوصف أمر شائع في الاعتذاريات العنصرية وفي أدبيات الاستعمار الأوربي، فالوصف هنا ليس وصفا للعربي بقدر ما هو وصف لأي آسيوي أو أفريقي (أو حتى أي أمريكي اسود)، والاستعمار الصهيوني، في أحد تصوراته لنفسه، كان يرى أنه جزء (تابع) لا يتجزأ من الحركة الإمبريالية الغربية، ومن الهجمة

العسكرية الحضارية على الشرق العربي لإدخال الحضارة والسكك الحديدية والبلاستيك والقنابل.

٢ - العربي ممثلاً للأغيار (تجريد العربي):

وقد وُصف الأغيار في الأدبيات الصهيونية بأنهم: ذئاب، قتلة، متربصون باليهود، معادون لأزليون لليهود، و«الأغيار» مقولة مجردة، بل إنها أكثر تجريداً من مقولة «اليهودي» في الأدبيات النازية، أو مقولة «الزنجي» في الأدبيات العنصرية البيضاء، وهي أكثر تجريداً لأنها لاتضم أقلية واحدة، أو عدة أقليات، أو حتى عنصراً بشرياً بأكمله، وإنما تضم كل الآخرين في كل زمان ومكان وقد وضع الصهاينة الإنسان العربي على وجه العموم، والفلسطيني على وجه الخصوص داخل مقولة «الأغيار» حتى يصبح بغير ملامح أو قسامات.

وتظهر مقولة «الأغيار» هذه في وعد بلفور (أهم الوثائق الصهيونية) حيث أشار إلى العرب (الذين كانوا يشكلون أكثر من حوالي ٩٣٪ من مجموع السكان) على أنهم «الجماعات غير اليهودية»، دون تحديد هذه الجماعات أو ذكر اسمها، حتى تنزل هذه الجماعات عند مستوى عال من التجريد، إن هذه الجماعات غير اليهودية هي أية جماعة إنسانية تشغل الأرض التي سيمتوطن فيها الشعب اليهودي. وبينما كان هرتزل يتفاوض بشأن كريت موقفاً للإستييطان الصهيوني كتب عن الجماعات غير اليهودية التي تقطنها بطريقة تنم عن عدم الاكتراث والتجريد، فقد وصفهم بأنهم «عرب، يونانيون، هذا الحشد المختلط من الشرق».

٣ - تهيمش العربى :

إن عملية التجريد السابقة تستهدف تهيمش العربى حتى لايشغل مركز الأحداث بالنسبة لفلسطين. والعربى الهامشى نمط أساسى فى الإدراك الصهيونى للعرب. إن الصهاينة ينكرون وجود أية هوية سياسية للعرب عامة، وللفلسطينيين على وجه الخصوصن أو أية مشاعر قومية من جانبهم، فالصهاينة فى إدراكهم للثورات العربتية عليهم ينكرون طبيعتها القومية والسياسية ويؤكدون لأنفسهم ولرفاقهم أن الدافع إليها ليس حب الأرض أو الوطن أو التمسك بالتراث، فالدافع إليها هو التعصب الدينى، وقد كان الصهاينة يلومون المسيحيين العرب، أحياناً، باعتبارهم الأعداء الحقيقيين لمشروعهم الاستيطانى، ويصورون المسلمين فى صورة الفريق الطيب الذى يمكن التقاهم معه، وكانوا أحياناً أخرى يفترضون العكس، فيؤكدون أن المسلمين هم العدو الحقيقى، وأن المسيحيين هم الفريق الذى يبدى استعداداً كبيراً للتعاون. وكانت الجماهير الفلسطينية بالنسبة إليهم مجرد غوغاء يتلاعب بها مثيرو الشغب من الإقطاعيين والأفندية ولاتحركها الدوافع القومية. ويرى سمحا فلابان أن وايزمان كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن تمرد هذه الجماهير ليس تعبيراً صادقاً عن حركة قومية خلاقة وإنما كانت تمليه الاعتبارات الإقطاعية القبلية الضيقة.

وإلى جانب هذا، كان الصهاينة يرون الفلسطينى أو العربى حيواناً أو مخلوقاً اقتصادياً محضاً تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة. وإذا ، فيمكن حل المشكلة العربية (حسب هذا التصور) فى إطار اقتصادى

لا يكون سياسيا بالضرورة، ولعل من الأمثلة الأولى على هذه الإستراتيجية الإدراكية رشيد بك، هذا العربي الذى تم تخليقه حسب المواصفات الصهيونية فى رواية هرتزل «الأرض الجديدة القديمة» ، فهو يؤكد أن الوجود الصهيونى قد عاد على العرب بالنفع الكبير، لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، كما أن الهجرة اليهودية كانت خيراً وبركة، خصوصاً بالنسبة لملك الأراضى لأنهم باعوا أرضهم بآرباح كبيرة، وظل ليف من الصهاينة يؤمنون إيماناً راسخاً بإمكان التقلب على معارضة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمّة التى سيجلبها الاستيطان الصهيونى، وعن طريق حثهم على الرحيل إلى البلاد العربية بعد إعطائهم التعويض الاقتصادى المناسب عن وطنهم. وكانت إحدى القناعات الإدراكية عند وايزمان أن تطور فلسطين سيؤدى إلى أن يفقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية.

٤ - العربي الغائب :

إن ذكر العرب، ولو فى مجال التشهير بهم، هو اعتراف ضمنى بهم، ولكن الصهاينة يحاولون إخفاء العرب بإدخالهم فى مفهوم مقولة «الأغيار» المجردة، هذا الاتجاه يصل إلى قمته فيما يمكن أن نسميه مقولة «العربي الغائب»، فبدلاً من الإخفاء الجزئى خلف مقولة مجردة، تصل محاولة الإخفاء إلى حد الإغفال الكامل، فالصهاينة أحياناً لا يذكرون العرب بخير أو شر، ويلزمون الصمت حيال الضحية،

ويُظهرون عدم الاكتراث الكامل بها (وهذه إحدى سمات الخطاب الصهيوني).

وأفراغ فلسطين من كل سكانها أو معظمهم (أى تغييبهم) هو أحد ثوابت الفكر الصهيوني، وهو عنصر مُتضمَّن بشكل صامت فى الصيغة الصهيونية الأساسية. وهذا أمر منطقي ومفهوم، إذ لو تم الاستيلاء على الأرض وبقي سكانها عليها لأصبح تأسيس الدولة الوظيفية مستحيلًا، ولتم تأسيس دولة عادية تمثل مصالح سكانها بدرجات متفاوتة من العدل والظلم، فيهودية الدولة (مع افتراض تغييب السكان الأصليين) هو ضمان وظيفيتها وفعاليتها.

ومن هنا، كان اختفاء العرب حتمياً، ومن هنا كانت الصفة الأساسية للاستعمار والاستيطان الصهيونيين هى كونهما استعماراً استيطانياً إحلاليًا. فصهيونيته تكمن فى إحلاليته، كما أن إحلاليته هى التعبير الحتمى عن صهيونيته (ويهوديته المزعومة).

ورغم أن رصد مقولة «العربى الغائب» وتوثيقها أمر بالغ الصعوبة لأن ما هو غائب لا يمكن رصده وتوثيقه بالطريقة التقليدية التى تعتمد على الاقتباسات والنصوص وتحليلها، ومع هذا، فإن هناك عددًا كبيراً من التصريحات والمفاهيم الصهيونية لا يمكن فهمها إلا فى إطار مقولة «العربى الغائب» ويمكن أن يندرج تحت هذا كل ذلك الحديث المستفيض عن الأرض المقدسة وإرتس إسرائيل وصهيون وأرض الميعاد، فهو حديث يستند فى نهاية الأمر إلى افتراض غياب فلسطين العربية، والحديث عن

استيطان المهاجرين من روسيا القيصرية باعتبارها «عاليا» أى «صعود»،
والحديث عنهم باعتبارهم «معبيليم»، أى يهود يدخلون فلسطين كما
دخلها العبرانيون القدامى رغم كل الصعاب والعوائق، هو أيضاً حديث
يفترض غياب العرب وغياب تاريخهم. بل إنه يمكن القول بأن المصطلح
الصهيونى ككل (نقى، عودة، تجميع المنفيين . . . إلخ) يفترض مفهوم
العربى الغائب، وقراءة أى نص صهيونى وفهم أى برنامج صهيونى أمر
صعب جداً، إن لم يكن مستحيلاً، من دون افتراض مقولة العربى الغائب
كمثل أعلى ونقطة تحقق.

ولنحاول الآن أن ننظر للواقع من خلال عيون مستوطن صهيونى يرى
العالم من خلال هذه العدسات الإدراكية: «إن ظهر عربى على شاشة
وعى، فإنه يتحدى خريطتى الإدراكية، فهو المفروض فيه أنه غير
موجود، وإن تجاسر وطالب بحقوقه ونادى بتطبيق قرارات هيئة الأمم
على إرتس يسرائيل، أرض الميعاد اليهودية، فهذا دليل على جهله
وتخلفه، ولا بد من تلقيته درساً، وإن بدأ يتحرك نحوى- أنا اليهودى
عضو الشعب المختار وصاحب الحقوق المطلقة- فهذا يعنى أنه إنسان
مجنون وخطر لا بد من القضاء عليه، فالعرب لا يفهمون سوى لغة القوة
(وهذا هو أحد بنود الإجماع الصهيونى).

هنا يتحول العنف الإدراكى إلى عنف فعلى مسلح، أى إلى إرهاب،
فتنتلق الصواريخ والمدافع والطائرات لتصبح فلسطين أرضاً بلا شعب،
أو أرضاً يقطنها شعب لا سيادة له يعيش داخل كانتونات تراقبه العيون

الصهيونية المسلحة لتضبط حركته وتجعله يتحرك داخل حدود الإدراك الصهيوني، وحينما يطالب الصهاينة الفلسطينيون بالجلوس معهم على مائدة المفاوضات فهم يطلبون منهم ذلك وهم قابعون داخل إدراكهم الصهيوني، فيعرضون عليهم سلامًا صهيونيًا حسب شروط صهيونية، يضمن استسلام الفلسطينيين، فإن لم يقبل الفلسطينيون بالسلام/الاستسلام، فإن جيش الدفاع الإسرائيلي سيتحرك ليدك المنازل ويسويها بالأرض ليضمن أن الواقع الفلسطيني يتفق مع الإدراك الصهيوني له.

الهاجس الأمنى وعقلية الحصار

ولكن لم يسمى جيش المستوطنين الصهاينة جيش الدفاع الإسرائيلي؟ يعود هذا بطبيعة الحال إلى تصور الصهاينة أن أرض فلسطين هي أرضهم وأن الفلسطينيين دخلاء، ومن ثم فالبطش بالفلسطينيين وذبحهم هو من قبيل الدفاع عن النفس! ولكن ثمة بُعدًا آخر خفيًا للإدراك الصهيوني وهو ما نسميه الهاجس الأمنى وعقلية الحصار. ويعود الهاجس الأمنى إلى أن المستوطنين الصهاينة أدركوا أن الأرض التى يسرون عليها ويدعون ملكيتها منذ آلاف السنين هي فى واقع الأمر ليست أرضهم، وليست أرضا بلا شعب كما كان الزعم، وأن أهلها لم يمتسلموا كما كان متوقعا منهم، ولم تتم إبادتهم كما كان المفروض أن يحدث، بل إنهم يقاومون ويتنفضون ويتزايدون فى العدد والكفاءات ولم يكفوا عن المطالبة بشكل صريح بالصفة والقطاع، ويشكل خفى بكل فلسطين وبحق العودة لها،

وقرارات هيئة الأمم المتحدة الخاصة بحق العودة لاتزال سارية المفعول. ولم تُقبل إسرائيل عضواً في المنظمة الدولية إلا بعد تعهدها بتفيذ هذه القرارات ، ويسانددهم فى هذا كله الشعب العربى ، ومسألة العجز العسكرى العربى والتفوق العسكرى الإسرائيلى ليست مسألة أزلية، وقد أثبتت حرب ١٩٧٣ ثم المقاومة فى لبنان، وبعدها الانتفاضة أن العرب قادرون على أن يعيدوا تنظيم أنفسهم ويهاجموا المستعمر ويلحقوا به خسائر فادحة.

ثمة إحساس عميق لدى المستوطن الصهيونى بأن العربى الغائب لم يغب، وهو أحساس فى جوهره صادق، فالكيان الصهيونى محاصر بالفعل ومهدد دائما، والعرب فى واقع الأمر لا يمكن «الثقة بهم»، لأن الجماهير العربية لن تقبل حالة الظلم باعتبارها حالة نهائية رغم توقيع معاهدات السلام الكثيرة! وأقصى ما يطمح إليه المستوطنون الصهاينة هدنة مؤقتة تنتهى عادةً بمواجهات عسكرية، فالصراع مع الكيان الصهيونى صراع شامل على الوجود، لأن وجود الشعب الفلسطينى لا يهدد حدود الدولة الصهيونية أو سيطرتها على أجزاء من الأرض الفلسطينية وحسب، وإنما يهدد وجودها كله، كل هذا يعمق إحساس المتوطنين الصهاينة بأن دولتهم كيان مشتول، فرض فرضا على المنطقة بقوة السلاح، وهم أول من يعرف أن ما أسس بالسيف يمكن أن يسقط به، والإسرائيليون دارسون نهمون لتجربة استيطانية سابقة تمت فى نفس المكان وهى تجربة حروب الفرنجة (الحروب الصليبية فى المصطلح الحديث). وممالك الفرنجة التى

دامت حوالى قرنين من الزمان، زحل اصحابها، ولم يبق من آثارهم سوى بعض الأطلال ومما يعمق مخاوفهم إحجام يهود العالم عن الهجرة والتكلفة المتزايدة للتكنولوجيا العسكرية، كل هذا يولد الهاجس الأمنى المرضى وعقلية الحصار المرضية، وهى حالة لا علاج لها داخل الإطار الصهيونى ومهما قدم العرب من تنازلات يظل الهاجس الأمنى قائما، وكأنه لا علاقة له بالواقع، فهو حالة إدراكية مرضية لها جذور عميقة فى الواقع.

وقد ولد هذا الهاجس الأمنى إحساسا عميقا باليأس لدى الإسرائيليين، والإحساس بأن حالة الحرب دائمة، ويظهر هذا الاستسلام الكامل فى كلمات موشيه ديان فى جنازة صديقه روى روتيرج الذى قتله الفدائيون الفلسطينيون، فقد قال وزير الدفاع والخارجية الإسرائيلى الأسبق: «إننا جيل من المستوطنين ولانستطيع غرس شجرة أو بناء بيت، دون الخوذة الحديدية والمدفع، علينا ألا نغمض عيوننا عن الحقد المشتعل فى أفئدة مئات الآلاف من العرب حولنا، علينا أن ندير رؤوسنا حتى لا ترتعش أيدينا، إنه قدر جيلنا، إنه خيار جيلنا، أن نكون مستعدين ومسلحين، أن نكون أقوياء وقساء، حتى لا يسقط السيف من قبضتنا وتنتهى الحياة.

ومنذ بضع سنوات لاحظ الشاعر الإسرائيلى حاييم جورى بمرارة ما سماه «مركب اسحاق» وهو أن الإنسان الإسرائيلى يولد وفى داخله السكين الذى سيذبحه، كما بين جورى أن هذا التراب (أى إسرائيل)

لا يرتوى، فهو يطالب دائما بالمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتى، كما لو كانت أرض إسرائيل آلهة ثار بذيئة، لا مجرد قطعة أرض أو إقليم، كما لاحظ الكاتب الإسرائيلي بن عيصر أن الإسرائيليين الشباب، الذين يخدمون في الجيش، يشعرون أن أهلهم بالاشتراك مع الدولة يضحون بهم دون تعويض أو عزاء من عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت، ولذا فهم يشعرون أن هذه الحروب هي تضحية علمانية بإسحق»، أى أنها تضحية بشرية لا هدف لها ولا معنى، والمؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون يتحدث عن «عمق الانتصار»، بعد أن رأى الجيش الصهيونى ينتصر فى حرب تلو الأخرى ولا يحقق شيئاً لأن الشعب الفلسطينى يرفض الاختفاء ولأن الشعب العربى لا يتوقف عن تأييد الفلسطينيين وأن الشعوب الإسلامية لا تزال متمسكة بالقدس وبأرض فلسطين.

وتتناول قصة «فى مواجهة الغابة» التى كتبها الروائى الإسرائيلى أبراهام يهوشوا، التى وصفت بأنها هدامة وانتحارية، بعض الأحداث فى حياة طالب يكتب دراسة عن حروب الفرنجة، وقد عُين بطل القصة الإسرائيلى حارساً لغابة غرسها الصندوق القومى اليهودى فى موقع قرية عربية أزالها الصهاينة مع ما أزالوه من قرى ومدن، وكانت كل شجرة فى الغابة تحمل أسم احد المساهمين المتحمسين من الصهاينة التوطيينيين من يهود الخارج، ورغم أن البطل ينشد الوحدة، إلا أنه يقابل عربياً عجوزاً أبكم من أهل القرية يقوم برعاية الغابة وتنشأ علاقة حب وكرامية بين العربى والإسرائيلى، فالإسرائيلى يخشى انتقام العربى، ومع ذلك

فإنه يجد نفسه منجذباً إليه بصورة غير عادية، بل يكشف الحارس المعين من قبل الصندوق القومي اليهودي أنه يحاول «بلا وعى» مساعدة العربي في إشعال النار بالغابة، وفي النهاية، عندما ينجح العربي في أن يضرم النار في الغابة كلها، يتخلص البطل من كل مشاعره المكبوتة.

والإحساس باليأس قد يؤدي في النهاية إلى الفرار والهزيمة، ولكنه في المراحل الأولى يؤدي إلى مزيد من العنف الفكرى الذى يؤدي بدوره إلى مزيد من الإرهاب الفعلى، وكلما زادت المقاومة الفلسطينية زاد البطش إلى أن يصل المستوطن الصهيونى إلى اللحظة التى يدرك فيها أن العنف لن يجدى قليلاً أمام المقاومة وأن تحالف إسرائيل الاستراتيجى مع الولايات المتحدة والعالم الغربى (وهذه هى آخر بنود الإجماع الصهيونى) لن يفيدها كثيراً فى محاولة قمع الفلسطينيين، عندئذ سيمارس هذا المستوطن تحولاً إدراكياً إذ إنه لن يمكنه الاستمرار فى الادعاءات أمام نفسه بأن فلسطين هى إرتس إسرائيل وأنها أرض بلا شعب تنتظر عودته منذ آلاف السنين، عندئذ ستسقط الأسطورة وتبدأ النهاية.

لا نهاية للتاريخ

فى ٢١ من أكتوبر عام ١٩٧٣ كتبت فى جريدة الأهرام مقالاً بعنوان «لا نهاية للتاريخ» أشرت فيه إلى أنه بغض النظر عن نتيجة الحرب فإن نظرية الأمن الإسرائيلية المبنية على فكرة الحدود الجغرافية الآمنة والتسى تسقط عنصر الزمان قد انتهت، لأن العرب أثبتوا مقدرتهم على تطويع

أنفسهم بمرور الزمن وحينما حانت اللحظة المواتية، تحركوا وألحقوا الهزيمة بالعدو الذي أدرك بعدها أن الأمن لا يوجد في المكان وحسب، وإنما يوجد في الزمان أيضاً، وأنه ليس مسألة خاصة بالعلاقة بالجبال والحواجز المائية والترابية، وإنما أمر يتعلق بالعلاقة مع البشر، وقد أنجزت انتفاضة ١٩٨٧ شيئاً من هذا القبيل، فمن خلال فعل المقاومة، اضطر الإسرائيليون إلى الاعتراف بالوجود الفلسطيني، وجود هزيل، محاصر من كل مكان، ولكنه وجود حقيقى، أى أن الخريطة الإدراكية الصهيونية تم تعديلها بشكل جذرى واختفت مقولة «العربى الغائب» ومع هذا استمرت المقولات الأخرى، وهذا ما تكفلت به انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ (التي يطلق عليها البعض اسم انتفاضة الاستقلال) فقد تركت جرحاً غائراً فى الوجدان الصهيونى أكثر عمقاً وجذرية من أى جرح سابق، فلم يعد بوسع الصهيونى أن يزعم أن العربى شخص متخلف هامشى أو عدو أزل لا عقلانى لليهود. فقد رأى بعينه السكان الأصليين، الفلسطينيين، وقد هبوا هبة رجل واحد يدافعون عن حقوقهم المشروعة التي لا يمكن التنازل عنها، وأرسلوا له حجراً يحمل رسالة لا يمكن أن تُتهم بالتخلف أو الهامشية، رسالة تخبره أن وهم السلم المبني على الظلم والبطش قد انتهى، وأنه لاسبيل أمامه إلا السلام المبني على العدل والذى لا ينطلق من الإجماع الصهيونى ونظريات الحقوق اليهودية المطلقة. كما رأى الشعب العربى والشعوب الإسلامية تتحرك بتلقائية غير عادية لمساندة الشعب الفلسطينى فى كفاحه بشتى السبل

ولاشك أن هذا أرسل رسالة واضحة جلية لصنّاع القرار في الغرب الذين كانوا قد شطبوا من حساباتهم ما سموه «الشارع العربي» و«الشارع الإسلامي»، أي الرأي العام العربي والرأي العام الإسلامي، ومما لا شك فيه أنهم سيعيدون حساباتهم.

إن الحلم الصهيوني، بهذا المعنى، قد تم تقويضه وإلى الأبد وانتهى الوهم بأنه يمكن للمستوطنين الصهاينة التعايش مع العرب حسب شروطهم العنصرية. ومن الآن فصاعداً، مهما يحدث بعد انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠، حينما سينظر الصهيوني إلى العربي بعيونه المسلحة فإنه سيرى مشروع انتفاضة، وسيرى يداً تمسك بحجر، وأن هذا العربي الذي يسير أمامه في سلام، والذي دخل معه في مفاوضات سلام ما يقرب من عقد من الزمان، هو فسى واقع الأمر عربي يلتقط أنفاسه ليعود ليقاوم وليرفع رايات العدل والصدق في زمن يكثر فيه الكذابين والجبناء. وهذا هو الإنجاز الأعظم لانتفاضة الاستقلال. والله أعلم.

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشترك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهاً.
 - الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.
 - الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.
- تسدد قيمة الاشتراكات مقدّمًا نقدًا أو بشيكات.
- بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة